عبد الصَّبور شاهين... العالم والمُفَكِّرُ والدَّاعية

بقلم: د. المُعتزّ بالله السَّعيد *

تقديم

كانت حياةُ الدُّكتور عبد الصَّبُور شاهين رحلةً علميَّةً حافلةً بالعطـــاء والإبـــداع وتربية أجيالٍ من الباحثين والمُفكِّرين، خاضَ خلالَها العديدَ من المعارك الفكريَّة في ميادين شتَّى مُدافعًا عن اللُّغة العربيَّة والهُوِيَّة الإسلاميَّة، وأثرى المكتبةَ العربيَّةَ بعشرات المؤلَّفـــات والتَّصانيف والكُتُب المُترجمة، مُلتزمًا بمبادئه ومُستَضِيئًا بمنهجه العلميّ الَّذي كوَّنَه.

وُلِدَ الدُّكتور عبد الصَّبور شاهين في 18 مارس عام 1929م في حـــيّ الإمـــام الشَّافعيّ بالقاهرة، وأتمَّ حفظَ القرآن الكريم في أحد الكتاتيب قبل أن يبلُغَ العاشـــرَةَ مـــن عمره. ولَمَّا أنهى دراستَه الابتدائيَّة الإلزاميَّةَ التَحَقَ للدِّراسة بالأزهر الشَّريف، ومنه إلى دار العُلُوم الَّتي تخرَّجَ فيها بتفوُّقٍ عامَ 1955م؛ وأكملَ دراستَه بالحُصُول على دبلوم التَّربيـــة في عام 1957م، والماجستير عامَ 1962، ثُمَّ الدُّكتوراه في علم اللُّغة عامَ 1965م.

حَرَصَ – رحِمَه الله – على التَّحصيل العلميّ مُبكِّرًا، وعُرِفَ عنه اجتهادُه وسعيُه إلى تنمية مهاراته والقراءة في عُلُوم العربيَّة وآدابها، بالإضافة إلى شغفه باللُّغـــة الفرنســـيَّة؛ فالتَحَقَ في سني عمره الأولى بأحد المعاهد المُتخصِّصة لدراسة اللُّغة الفرنسيَّة حتَّـــى بـــرعَ فيها، ثُمَّ دَفَعَته رغبته في التَّعرُّف إلى الفكر الفرنسيّ إلى الالتحاق بكلِّيَّة الحُقُوق في جامعة القاهرة – مُستَمِعًا حُرًّا – ليُفِيدَ من المُحاضرات الَّتي يُلقِيها الأساتذةُ في القـــانون المـــدنيّ والدُّستوريّ والاقتصاد السِّياسيّ والقانون الرُّومانيّ وتاريخ القانون.

ومع هذا الحرص والرَّغبة في التَّعلُّم.. فقد تعطَّلت المسيرةُ العلميَّةُ لأستاذنا الرَّاحل أثناء دراسته في دار العُلُوم نتيجةَ انتمائه لجماعة الإخوان المُسلمين وسعيه إلى ممارسة نشاطٍ تنويريّ، حيثُ اعتُقِلَ في هذه الآونة، الأمر الَّذي أدَّى إلى تخلُّفه عن زملائه عامًا كاملا.

---

* مُدَرِّس بكُلِّيَّة دار العُلُوم – جامعة القاهرة.

في بداية الطَّريق

لَمَّا تخرَّجَ الدُّكتور عبد الصَّبُور في دار العُلُوم سعى إلى الحُصُول على وظيفةٍ مُناسبة، وساعدَهُ تفوُّقه ونبوغُه في اجتياز اختبارات الوظائف الَّتي تقدَّمَ إليها بجدارة، سواءٌ في السِّلك الدِّبلوماسيّ أم الإذاعة المِصريَّة أم التَّدريس؛ إلاَّ أنَّ نشاطَه السِّياسيَّ الَّذي مارَسَه في أثناء دراسته في المرحلة الجامعيَّة أوقعَه في العديد من المُشكلات بعد تخرُّجه، فرُفِضَ تعيينُه في أيٍّ من هذه الوظائف.

وكانَ أستاذُنا – رحِمَهُ الله – يحكي عن ذلك فيقُول إنَّه في أثناء بحثه عن عملٍ بعد تخرُّجه قرأَ إعلانًا للإذاعة المِصريَّة تطلبُ فيه مُذيعِين ومُحَرِّرين، وتقدَّمَ للامتحان مع ما يزيد على مائة مُتقَدِّمٍ، واسطاعَ أن يتقدَّمهُم جميعًا ليكونَ الأوَّلَ بينهم بعدما أثبَتَ براعَتَه في المحادثة والارتجال بالعربيَّة والفرنسيَّة على السَّواء.

وفوجئَ الشَّابُّ النَّابهُ آنذاكَ بجهاتٍ سياديَّةٍ تستدعيه لتُخبرَه أنَّه ممنوعٌ من العمل في مصر، وتُلزِمُه بعدم السَّعي إلى ذلك. وحينها.. فكَّرَ أن يتَّجه إلى العمل الحُرّ مُستفيدًا من إجادته للُّغة الفرنسيَّة وقُدرَته على التَّرجمة منها إلى العربيَّة. ومُصادَفةً.. عرفَ أنَّ زائرًا مغربيًّا يسأل عنه، ويسأله عن مدى استعداده لترجمة كتاب "الظَّاهرة القرآنيَّة" للمُفكِّر الجزائريّ مالك بن نبيّ من الفرنسيَّة إلى العربيَّة.

كانَ هذا الزَّائر طالبًا يدرسُ بالقاهرة، هو الأستاذ عبد السَّلام الهرَّاس – الَّذي صارَ أحدَ أعلام الأدب واللُّغة فيما بعد؛ ويتذكَّر عبد الصَّبور شاهين ذلك الموقفَ، فيقول إنَّه شعرَ أنَّ الله قد أرسلَ إليه هذا الزَّائرَ ليفتَحَ له به طريقًا إلى الخير الَّذي يطمحُ إليه.

وعكفَ عبد الصَّبُور شاهين خلال هذه الفترة على ترجمة وتعريب العديد من الكُتُب والمؤلَّفات في الحضارة والفكر الإنسانيّ إلى أن أُتِيحت له فرصةٌ للعمل في التَّدريس، ثُمَّ رشَّحته كُلِّيَّة دار العُلُوم للعمل مُعيدًا بها – حيث كانَ ترتيبه الثَّاني في دفعته بعد صديقِه وزميل رحلته.. العالِم اللُّغَويّ الرَّاحل رمضان عبد التَّوَّاب – رحمَه الله، الَّذي سافَرَ حينها في بعثةٍ إلى ألمانيا للحُصُول على درجة الدُّكتوراه. واجتازَ أستاذنا الرَّاحلُ عقَبَةَ الجهات الأمنيَّة بعدما تدخَّلَ الشَّيخ أحمد حسن الباقوري – الَّذي كانَ وزيرًا للأوقاف – ليدعمَ موقفَه ويُصِرَّ على تعيينه في دار العُلُوم، ليبدأ مرحلةً جديدةً من العمل الأكاديميّ.

مالك بن نبيّ.. ومشروعٌ نهضَوِيّ

تعرَّفَ عبد الصَّبور شاهين على أفكار مالك بن نبي بعدما أنهى الدِّراسةَ بالمرحلة الإعداديَّة من خلال مقالاته الَّتي كانَ ينشُرُها في مجلَّة الحضارة الدِّمشقيَّة، وعن طريق الطالب المغربيّ عبد السَّلام الهرَّاس كانَ اللِّقاء الأوَّل بين شاهين ومالك في عام 1957م، وسرعانَ ما توطَّدت العلاقة بينهما. وكانَ مالك قد انتقلَ لاجئًا سياسيًّا للإقامة في مصر قادمًا من فرنسا بعد إعلان الثَّورة المُسَلَّحة في الجزائر عامَ 1954م، إذ كانَ يشعُرُ أنَّ الحُكومةَ الفرنسيَّةَ توشك أن تُلقي القبضَ عليه.

كانَ أستاذُنا – رحِمَه الله – مُعجبًا بفكر مالك بن نبيّ وبمشروعه النَّهضويّ، وتحمَّسَ لترجمة مؤلَّفاتِه رغبةً في نقلِ فكرِه وتعريف العَرَب به؛ وصارَت ترجمةُ مؤلَّفات مالك مشروعًا طموحًا لشاهين، وبقدر ما عُرِفَ مالكُ بن نبي مفكِّرًا ومُنَظِّرًا وفيلسوفًا .. بقدر ما عُرِفَ عبد الصَّبُور شاهين مُتَرجمًا ذا رؤيةٍ ووعيٍ لأهمِّ ما كَتَب مالك، فلم يعد أحدٌ يعرف مالك بن نبيّ إلاَّ ويعرفُ معه أوَّل مُترجمٍ لأعماله.. عبد الصَّبُور شاهين.

وصَف أستاذنا – رحمه الله – مشروع مالك بأنَّه مشروعٌ عقلانيٌّ ومنطقيّ، يصلُحُ درسًا في مسالك النَّهضة الحضاريَّة ودُرُوبها، لكنَّ في هذا المشروع – كما كانَ يرى أستاذُنا – نُقطَةَ ضَعف، هي أنَّ مالكًا لم يكُن يُمَثِّلُ قيادةً فكريَّةً جماهيريَّة، بل كانَ مُنحصِرًا في ذاته. وتبلوَرَت فكرةُ هذا المشروع في العديد الكُتُب الَّتي ترجمها أستاذُنا الرَّاحل؛ لعلَّ أبرزَها:

- شُرُوط النَّهضة (بمُشاركة الأستاذ عُمَر كامل مسقاوي).
- فكرة الإفريقيَّة الآسيويَّة.
- الظَّاهرة القُرآنيَّة: نظريَّة جديدة في دراسات القُرآن.
- وجهة العالَم الإسلاميّ.
- ميلاد مُجتمَع: شبكة العلاقات الاجتماعيَّة.
- فكرة كومنولث إسلاميّ.

وقد تُرجِمَت جميعُ هذه الكُتُب في الفترة من عام 1957م إلى عام 1963م، وهو العام الَّذي عادَ فيه مالك بن نبيّ إلى بلده الجزائر بعد استقلالِها.

العالِم اللُّغَويّ

درسَ الدُّكتور عبد الصَّبُور شاهين عُلُومَ العربيَّة وآدابَها والعُلُـومَ الإسـلاميَّةَ في الأزهر الشَّريف، ثُمَّ أكمَلَ دراستَه في دار العُلُوم على أيدي أساتذةٍ وعلماء أجلاَّء، وانتَقَلَ من مرحلة الطَّلَبِ إلى مرحلة البحث بعدما عُيِّنَ مُعيدًا في دار العُلُوم عامَ 1958م، حيث بدأت علاقتُه بالبحث في عُلُوم اللُّغة بحكم عمله الأكاديميّ؛ وكانَ شاهينُ مؤمنًا بأنَّ القُرآنَ الكريمَ هو الأداة الأساسيَّة للبحث والتَّنظير في عُلُوم اللُّغة العربيَّة وأصواتها.

تتلمذَ شاهين على يد رائد الدِّراسات اللُّغَوِيَّة الحديثة في العالم العربيّ – الدُّكتور إبراهيم أنيس (1906–1977)، فنهل من علمه في المرحلة الجامعيَّة، وتوطَّدَت العلاقةُ بينهما – أستاذًا وتلميذًا – في مرحلة الدِّراسات العليا، إذ أشرَفَ الدُّكتور إبراهيم أنيس على تلميذِه في أطروحَتَيه للماجستير والدُّكتوراه.

وأولى شاهينُ عنايةً خاصَّةً بعلم الأصوات باعتبارِه أحدَ عُلُوم اللُّغة. دفَعَهُ إلى ذلك حُبُّه للقُرآن الكريم، ورغبته في دراسة أصواته وفقَ منهجٍ علميٍّ لـه قواعـدُه وضـوابطه وأصُوله. ومضَى شاهين في بحثه ودراسته مُستَعينًا بتوجيه أستاذِه الَّـذي كـانَ عالمًا بالأصوات العربيَّة؛ فأعدَّ أطروحته للماجستير بعُنوان "الأصوات في قراءة أبي عمرو بن العلاء"، ثُمَّ أعدَّ أطروحتَه للدُّكتوراه بعُنوان "دراسة صوتيَّة في القراءات الشَّاذَّة".

لم تتوقَّف عناية شاهين بالدَّرس الصَّوتيّ عند أطروحَتَيه اللَّتَين تناولتـا توصِيفًا وتحليلا صوتيًّا لقراءات القُرآن الكريم، بل امتدَّت لتشملَ العديدَ من الدِّراسات والتَّرجمات والكُتُب المُحقَّقة، فكانَ من دراساته:

- المنهج الصَّوتيّ للبنية العربيَّة: رؤية جديدة في الصَّرف العربيّ.

ومن ترجماته:

- علم الأصوات لبرتيل مالمبرج (وقد اهتمَّ أستاذُنا الرَّاحل بتعريب مادَّة هذا الكتاب، كما ألحقَ به مجموعةً من الدِّراسات الصَّوتِيَّة الفريدة).

ومن الكُتُب الَّتي حَقَّقَها:

- أثر القراءات في الأصوات والنَّحو العربيّ لأبي عمرو بن العلاء.
- لطائف الإشارات لفُنُون القراءات لشهاب الدين القسطلاني (بالاشتراك).

واهتمَّ شاهين – كذلك – بقضايا الدَّرس اللُّغَوِيّ عمومًا، فوضَعَ العديدَ من الكُتُب والدِّراسات في علوم اللُّغة وقضايا العربيَّة، منها:

- العربيَّة الفُصحى.
- في علم اللُّغة العامّ.
- في التَّطَوُّر اللُّغَوِيّ.
- في العربيَّة والقُرآن.
- العربيَّة.. لُغة العُلُوم والتِّقنية.
- القراءات القُرآنيَّة في ضوء علم اللُّغة الحديث.

كما انشَغَلَ شاهين بقضِيَّة تدريس اللُّغة العربيَّة والتَّحدِّيات الَّتي تواجهها في العصر الحديث نتيجةَ مُحاولات التَّغريب وطمس الهُوِيَّة العربيَّة، فكَتَبَ العديدَ من المؤلَّفات في هذا الجانب، منها:

- التَّحدِّيات الَّتي تُواجه اللُّغةَ العربيَّة.
- قضيَّة التَّدريس باللُّغة العربيَّة في المعاهد العِلميَّة.
- النُّهوض باللُّغة العربيَّة في مختلف المراحل التَّعليميَّة.

وعن عمله في صناعة المُعجم.. فقد التزَمَ بمناهج الصّناعة المُعجميَّة الحديثة وآمَنَ بأهمِّيَّة استخدام التِّقنيات الحديثة في بناء المُعجمات، ويتَّضِح ذلك في العديد من تصنيفاته الَّتي أنجزَها مُنفرِدًا أو بمشاركة أساتذةٍ آخرين. وكانَ منها:

- مُفَصَّل آيات القُرآن.. ترتيبٌ مُعجَميّ.
- دراسة إحصائيَّة لجُذُور معجم تاج العروس باستخدام الكومبيوتر (بالاشتراك).

أمَّا عن علاقته بتلاميذه.. فقد كانَ – رَحِمَه الله – أبًا ومُعلِّمًا ومُرَبِّيًا، يدعوهم إلى بيتِه العامر، ويُزَوِّدُهم بما تحويه مكتَبتُه الزَّاخرة بكُلِّ نفيسٍ وجليل، ويحثُّهم على التَّعلُّم والطَّلَب والاجتهاد في التَّحصيل والبحث، مُؤمنًا بأنَّ العلمَ رَحِمٌ بين أهله، ويشهدُ تلاميذُه وزُملاؤه أنَّه كانَ مِمَّن يَصِل هذا الرَّحم. وقد أشرَفَ – رحِمَه الله – على العشرات من الأطروحات العلميَّة في الجامعات العربيَّة، فصارَ ينشدُه طُلاَّب العلم من كُلِّ بقاع الأرض.

المُفكِّر الإنسانيّ

آمَنَ شاهين بأهمِّيَّة إعمال العقل والمنطق في الوُصُول إلى الحُجَج والبراهين الَّتي يُستَدَلُّ بها على الحقائق؛ ودَفَعَه إيمانه إلى العمل على بناءِ منهجٍ موضُوعيٍّ في التَّفكير العلميّ، أداتُه النَّقل، ووسيلة فهمه العقل. وحقَّقَ شاهين غايَتَه، إذ اتَّضَحَت أفكارُه وتَبلوَرَت آراؤه من خلال مؤلَّفاتٍ ودراساتٍ في مختلف ميادين الفكر الإنسانيّ.

وتتجلَّى عبقريَّةُ شاهين في تحليل النُّصُوص وفهمها وفقَ منهجيَّةٍ علميَّةٍ وموضُوعيَّة من خلال مؤَلَّفِه الأشهر "أبي آدم" الَّذي أحدثَ ثورةً وقتَ صُدُوره، وأثارَ جدلاً كبيرا لا تزال أصداؤُه مُستمرَّةً حتَّى يومنا هذا. وقد لخَّصَ – رحمه الله – فكرَتَه في أنَّ "الإنسان الَّذي كرَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ وأمرَ ملائكتَه بالسُّجُود له هو امتدادٌ لمخلوقٍ واحد قبله هو البشر، وليس كما يقول داروين.. حلقةً في سلسلة تَطَوُّرِ القِرَدة" [1].

ويُدَلِّلُ أستاذُنا على فكرته بأنَّ "الله تبارك وتعالى خلقَ البشر من طينٍ، ثُمَّ سوَّاه وصَوَّرَه ونفخَ فيه من رُوحه، فكانَ الإنسانُ هو الثَّمرة مكتملة الملكات في آخر المطاف؛ وعليه.. فوجود البشر إنما كانَ بمثابة المراحل التَّحضيريَّة لظُهور ذلك المخلوق الَّذي قضى علي الأرض ملايين السِّنين بين عوامل التَّسوية وتحصيل خواصِّ الجمال والكمال بروحٍ من الله الَّذي قدَّرَ له أن يكون سَيِّدَ الكون، حتَّي صارَ جديرًا بحمل أمانةِ الله علي هذه الأرض". وفي رأيه أنَّ الإنسانَ "أشرَقَ من سلالة البشر، واكتملَ الخلقُ فجاء آدمُ، وليس غريبًا أن نتصوَّرَ أن آدمَ جاء مولودًا لأبوين، وكذلك جاءت زوجته" [2].

واعتمَدَ شاهينُ في عرض قصَّة الخليقة "على استنطاق آيات القُرآن باعتبارِها المصدرَ الأوَّلَ والأوثقَ الَّذي ينبغي اعتمادُه في هذا المجال، كما اعتمَدَ على بعضِ الحديث النَّبويّ الشَّريف، حرصًا على فهم المعنى القُرآنيّ وإجلاء غمُوضِه ومُبهَمِه" [3]. والتَزَمَ شاهينُ بإقرار أربعة مبادئ أساسيَّة، هي: "الأرضيَّة" إذ على الأرضِ عاشَ ومات آدَم، و "التُّرابيَّة" حيثُ خلَقَ الله الخلقَ من التُّراب، و "البشريَّة" وهي حقيقةٌ بدأَ بها وُجُودُ الإنسان، و "الرَّبَّانيَّة" بما ميَّزَ الله به الإنسانَ من النَّفخ فيه من رُوحه.

---

[1] نقلا عن حوارٍ أجرَته جريدة الدُّستور مع الدُّكتور عبد الصَّبُور شاهين في عددها الصَّادر بتاريخ 3 يناير 2010م، بتصرُّف.
[2] السَّابق، بتصرُّف.
[3] شاهين (عبد الصَّبُور): أبي آدم، دار الاعتصام، 1998م، ص 12، بتصرُّفٍ يسير.

كَتَبَ شاهينُ مؤلَّفه على مدى خمسٍ وعشرين سنة، "قضـاها مُحـاولا فهـمَ النُّصُوص الَّتي جاءت في القُرآن الكريم باعتبارِها نُصُوصًا قطعيَّةً تروي وقائعَ قصَّة الخلـق الَّتي صارت تُمَثِّل أمامَ العقل الحديث مُشكلةً نتيجةَ التَّصادُم بين مُعطيات القِصَّة القديمـة ومُعطيات العصر الحديث"، فراعَى – بذلك – قداسةَ النُّصُوص المُنَزَّلة، وأقرَّ بما هو معلوم من الدِّين بالضَّرورة؛ وكان الهدفُ من هذا الكتاب التَّوفيقَ بين التَّصوير القُرآنيّ والاتِّجاه العِلميّ في تصوير الحياة البشريَّة علي هذه الأرض [4].

وبصرف النَّظر عن اتِّفاقنا أو اختلافنا مع أستاذنا الرَّاحل.. فقد أعطـى صُـورةً مثاليَّةً للباحث الجادّ الَّذي يلتزمُ منهجًا علميًّا واضِحَ المعالِم، دونَ خوضٍ في أدلَّةٍ ثابتـةٍ أو تحيُّزٍ لفكرةٍ دونَ سواها. وأحدَثَ الكتابُ – وقتَ صُدُوره – زوبعةً لَمَّا تهدأ، فكانَ مـن رُدُود الفعل أن أقيمَت أربع دعاوى قضائيَّة ضدَّ الكتاب ومؤلِّفه، لم يصـدُر في أيٍّ منـها حُكمٌ بإدانة الكاتب أو محتوى الكتاب.

نصر أبو زيد.. وحقيقة التَّكفير

كانت المعركة الأشدُّ شراسةً في حياة أستاذنا الرَّاحل معركتَه مع مُتَّهِميه بـتكفير الأكاديميّ الرَّاحل نصر أبو زيد – الَّذي هاجَرَ إلى هولندا بعد صُدُور حُكمٍ قضـائيٍّ في قضِيَّة "الحسبة" يقضي بالتَّفريق بينه وبينَ زوجته.

ولسنا بصدد تفصيل وقائع القضِيَّة المشهورة، بل يكفينا أن نعرِضَ دفاعَ أسـتاذنا عن نفسه في هذه القضِيَّة الَّتي أثارَت الرَّأيَ العامَّ وفرَّقَت عُلماءَ مصر ومُفَكِّريها بينَ مُؤَيِّدٍ لشاهين ومُعارِضٍ له، حتَّى أنَّ كثيرًا من وسائل الإعلام قد انبَرَت للهُجوم عليـه تحقيقًـا لأهدافٍ غيرِ مُعلَنةٍ، وترويجًا لُمعتقداتٍ وأفكارٍ تتبنَّاها الماركسيَّة والشّيوعيَّة.

لقد أشاعَ بعضُهم في هذه الآونة أنَّ شاهِينَ – رحمَه الله – قامَ بتكفير الـدُّكتور نصر أبو زيد بسبب أبحاثه ودراساته الَّتي رأى أنَّها تُخالف صحيحَ الكتاب والسُّنَّة؛ وقـد واجَهَ أستاذُنا معركةً قاسيةً، إذ تحامَلَ عليه كثيرٌ من المُثَقَّفِين والمُفَكِّرين، مُـتَّهِمِين إيَّـاه بالإرهاب الفكريّ ومُحاربة المُفكِّرين والمُبدِعين، ليس فحسب، بل اتَّهموهُ – كـذلك – بتكفير أصحاب الرَّأي والحُكم على عقائِدِهم ومُعتقداتِهم.

---

[4] جريدة الدُّستور، في عددها الصَّادر بتاريخ 3 يناير 2010م، بتصرُّف.

وكانت المُشكلةُ حينَ تقدَّمَ الدُّكتور نصر أبو زيد إلى لجنة ترقيــة الأســاتذة في جامعة القاهرة حيثُ كانَ شاهين أحدَ أعضاءِ اللَّجنة العلميَّة الَّتي أقرَّت بأنَّ الإنتاجَ العلميَّ المُقَدَّمَ يحتاج إلى إعادة نظرٍ، وأنَّه لا يرقى إلى درجة الأستاذيَّة في اللُّغة العربيَّة، الأمر الَّذي عارَضَه أنصارُ الدُّكتور نصر أبو زيد داخلَ الجامعة وخارجها، في واقِعةٍ فريدةٍ تُعَدُّ الأولى من نوعها في تاريخ الجامعات المِصريَّة، إذ انطَلَقت مُظاهراتٌ إعلاميَّةٌ صاخبةٌ تتَّهم اللَّجنةَ العلميَّةَ – وعلى رأسها الدُّكتور عبد الصَّبُور شاهين – بإعاقة حُرِّيَّة الفكر والبحــث في جامعة القاهرة، الَّتي تُعَدُّ كبرى الجامعات المِصريَّة.

وقد دافعَ أستاذُنا – رحمه الله – عن عمل أعضاءِ اللَّجنة العلميَّة، لأنَّهم – مــن وُجهة نظرِهِ – يُقَيِّمون الأبحاثَ بنزاهة المُحكِّم وضمير القاضي، دونَ اعتبــارٍ للرَّغبــات والأهواء، ودونَ تَعرُّضٍ لعقيدة الباحث أو دينه، إذ أمرُ ذلك إلى الله؛ فهم يفحصُونَ بحثًــا لا باحثا، وهدفهم تحقيقُ العدالة ووُصُول الحَقِّ إلى مُستَحِقِّيه [5].

ومع أنَّ الدُّكتور نصر أبو زيد قد دعا إلى ثورةٍ مُباشِرةٍ على سُلطة نُصُوص القُرآن الكريم مُعتَبِرًا إيَّاه مُنتَجًا ثقافيًّا ينتمي إلى ثقافة البشر، ومع أنَّه وصَفَ العقلَ المُؤمِنَ بالغَيب بأنَّه عقلٌ مُغَيَّبٌ بالخُرافات والأساطير، إلاَّ أنَّ أستاذَنا – رحمه الله – نفى أن يكونَ قــالَ بتكفيرِه قبل وفاته، كما نفى أن يكونَ قد سعى إلى ذلك، مؤكِّدًا أنَّه لا يُمكن أن يُوَرِّطَ نفسَه في هذا الاتِّهام عملا بقول النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: "مَن قالَ لأخيه يا كافر فقــد باءَ بها أحدُهما"، وذَكَرَ – رحِمَه الله – أنَّ تقييمه لأعمال الدُّكتور نصر أبو زيد لم يَخرُج عن كونه تقييمًا علميًّا وموضُوعيًّا دونَ نظرٍ إلى اعتباراتٍ أخرى.

أمَّا عن دعوى "الحسبة" الَّتي نُسبَت إلى شاهين، والَّتي حُكِمَ بمُقتضــاها باعتبــار الدُّكتور نصر أبو زيد مُرتَدًّا عن الإسلام – ما يعني ضرورةَ التَّفريق بينه وبين زوجته، فقد تَبَرَّأَ شاهينُ منها – كذلك – مؤكِّدًا أنَّ مُعارِضِيه أرادوا أن ينسبوا إليه مــا لم يفعــل، وهدفُهم في ذلك إثارةُ الرَّأي العامِّ ضِدَّه، وكسب تعاطُف العامَّة مع الدُّكتور نصر أبــو زيد؛ وقد تعرَّضَ أستاذُنا – رَحِمَه الله – لمحنةٍ امتَدَّ صداها لسنواتٍ، إذ هاجمتــه أقــلامُ أدعياء حُرِّيَّة الفكر والإبداع، دونَ وعيٍ بأبعاد القضِيَّة أو معرفةٍ بحقيقة الأمر.

---

[5] السَّابق، بتصرُّف.

الدَّاعية الإسلاميّ

كانَ الدُّكتور عبد الصَّبور شاهين داعيةً إسلاميًّا ذا فكرٍ منهجيٍّ ورؤية تنويريَّةٍ واضحة؛ وقد اعتلى منابرَ الدَّعوة في المساجد حين بلغَ الرَّابعة عشرة من عُمره. وعلى حداثةِ سنِّه – في ذلك الوقت – إلاَّ أنَّه كانَ خطيبًا مُفَوَّهًا وفصيحًا، يُجيدُ الارتجالَ بالعربيَّة الفُصحى البسيطة، فينتقي ألفاظَه، ويعكسُ فكرَه، وينقل رؤيَتَه.

وقد انفرَدَ شاهين بمنهجٍ دعويٍّ يجمع – من خلاله – بين نُصُوص القُرآن والسُّنة والأدلَّة الشَّرعيَّة الَّتي أقرَّها عُلماءُ الأصول، وبينَ قضايا مُجتمعه ومُشكلاته المُعاصِرة، مُتَّخِذًا من النُّصُوص حُجَّةً ودليلا، ومن فقه الواقِع وسيلةً يصل بها إلى قلوب مُستَمِعِيه ورُوَّاد منبرِه قبل أن يصلَ إلى آذانِهم وعُقُولهم، حتَّى قصدُوه رغبةً في الاستماع والإدراك والفهم، والتماسًا إلى طريق الخير والهُدى والرَّشاد.

وتصدَّى شاهين – رحِمَه الله – للخطابة في مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة، الَّذي يعدُّ أقدَمَ مساجد مصر، كما يُعَدُّ منبرُه أحد أشهر المنابر الدَّعويَّة. ولعلَّ الكثيرين من رُوَّاد مسجد عمرو بن العاص يعرفون ما كانت تُحدِثُه الخطبة الأسبُوعيَّة للدَّاعية الكبير من ضَجَّةٍ وجدلٍ، نتيجةَ مواقفِ شاهين الثَّابتة وآرائِه الحُرَّة الجريئة، الَّتي يستمدُّها من القُرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة، فكانَ يصدح بالحقّ حتَّى شَهِدَ له القاصي والدَّاني أنَّه رجلٌ صاحبُ موقفٍ، لا يخشى في الله لومةَ لائم. هكذا كانَ شاهين.. حتَّى دفَعَ ثَمن مواقفه، فاستُبعِدَ عن الخطابة لسنواتٍ.

واتَّخَذَ شاهين من قلمه منبرًا آخر، يدعو من خلاله إلى الله بالحُسنى وفقَ منهجٍ وسطَيٍّ يُوَجِّهُهُ فكرٌ مستنير؛ فخلَّفَ عشرات الكُتُب في ميادين الدَّعوة الإسلاميَّة، منها:

- علِّمُوا أولادَكم القَضِيَّة.
- دُستور الأخلاق في القُرآن.
- تأمُّلات مِنبريَّة في ضياء القُرآن.
- الإعلام في خدمة الدَّعوة الإسلاميَّة.
- ماذا أعدَّت مصر لنفسها بعد أكثر من زلزال.
- الإسلام دين السَّلام: رسالة إلى الضَّمير الانسانيّ.

وبعدَ حياةٍ علميَّةٍ قضاها الدُّكتور عبد الصَّبُور شاهين طالبًا.. فمُعلِّمًا.. فعالمًـــا.. رحَلَ عن دُنيانا مساءَ يوم الأحد الموافق 26 سبتمبر 2010م. إلاَّ أنَّه رحلَ حيًّا إذ تـــركَ خلفَه علمًا غزيرًا تزخرُ به المكتباتُ العربيَّة، وجيلا من البـــاحثين والمُفَكِّـــرين والـــدُّعاة ينشُرون علمَه وفِكرَه ودعوَتَه، فإلى رُوح أستاذي.. عبد الصَّبُور شاهين.. العالم والمُفَكِّـــر والدَّاعية.. أهدي هذه المقالةَ، سائلا الله أن يتغمَّدَه بواسِعِ رحمته.